

الحج في كَلستان [حديقة الزهور] السعدي الشيرازي (ت: ٥٨٠ - ٦٩٠هـ)

محمد علاء الدين منصور

بين يدي البحث

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وسلام على خاتمهم المصطفى .
وبعد، فأجد مناسباً أن أقدم لبحثي هذا نبذةً مختصرةً جداً عن الأديب
المؤلف .

كنيته أبو عبدالله، واسمه «مشرف الدين مصلح الدين»، وتخلصه أو لقبه
الشعري هو «السعدي»، من اسم ممدوحه وراعيه الأتابك سعد بن زنكي، ومولده
ومدفته بشيراز، وقد ولد من أسرة من أهل العلم والدين عام «٥٨٠هـ» وتوفي
«٦٩٠هـ» أي عمّر أكثر من قرن .

وثقافة الشيخ أدبية إسلامية وسعها في ديوانه الفخم الذي يضم ست رسائل
نثرية ومثنوياً هو «بوستان»، وكتاباً نثرياً هو «گلستان»، وكلاهما بمعنى الجنة
والبستان، وقصائد عربية وفارسية، وأشعار وغزليات في الموعظة والحكمة
والحب الإلهي .

لُقّبَ بأفصح المتكلمين وملك الكلام . جاب البلاد وخبر العباد وبعد تطوافه
وترحاله إلى بلاد المسلمين - وواسطة عقدها مكة المكرمة - والذي استمرّ ثلاثين

عاماً من عمره، عاد إلى شيراز شيخاً وقوراً، فتنفرغ للتأليف والعبادة حتى وافته المنية^(١).

تميز هذا الأديب، فوق علمه وروعة ثقافته الإسلامية - بتدفق مشاعره الرؤوفة التي شملت الإنسان والعالم جميعاً بلا تفریق من تراحله الطويل ومعاركة الحياة ومعاشرة الأحياء، وما جبل عليه من ثاقب النظر وغائر الفكر، فتحدث في مهم هموم الآدمي، في ضعفه ومشيبه وعشقه وشيبوبته وفقره وإعوازه ومرضه وموته، فوجد الناس في كل موطن سواء، تطحنهم صروف الزمان وتريهم نوازل الحدثنان، فينقلبون بين غني وفقير ومكنة وضعف، ويتهددون بضربات الحياة، فحس أن يُحسِنَ الناس أخلاقهم كما دعا القرآن الكريم إليه فيصلح الراعي للرعية ويعدل فيهم بالنصفة ويتواضع الجليل للضئيل، ويرضى كل امرئ بما أوتي ويقنع، ودعم رأيه بمحدث شريف مشهور وقال:

بنی آدم اعضای یکدیگرند که در آفرینش ز یک گوهرند
چو عضوی به درد آورد روزگار دگر عضوها را نماند قرار
تو کز محنت دیگران بی غمی نه شاید که نامت نهند آدمی^(٢)

(١) للوقوف المفصل على ترجمة هذا الشاعر الأديب، يراجع كتاب «سعدى الشيرازي» و«سعدى شاعر الإنسانية» للدكتور محمد موسى هندأوي، وكتاب -«جنة الورد» للدكتور أمين عبدالمجيد بدوي ولراقم هذه السطور مقدمة كتاب «مواعظ سعدى».

(٢) كليات الشيخ سعدى، تصحيح محمد علي فروغى، شركة تضامني علمي (طهران ١٣٢٠هـ): ٩.

والمعنى:

بنو آدم أعضاء كل منهم للآخر وهم في الخلقة من جوهر واحد
فإذا ريب الزمان صدع عضواً ما قرّ لغيره من الأعضاء قرار
فإن أنت لم تغتم بمحنة الآخرين ما استحققت أن تُسمى بالآدمي

أما كتابه الغلستان موضع البحث، فجماعٌ للحكمة والتربية والموعظة
المثيرة في الحكايات المبنوثة في الحكايات التمثيلية اللطيفة والنوادر المليحة، في
كسء بديع من الشعر والنثر وأسلوب يسمى بالأسلوب الموزون الذي يجعل
بالتصوير والبديع خاصة السجع. ويقوم على الكلمات القصار التي تفيض
بالحكمة وتزخر بالمعاني الجميلة^(١)، من مثل قوله في الفرق بين العالم والجاهل
في الباب الثامن في آداب الصحبة: «مشك آن است كه خود بيويد، نه آن كه
عطار بگويد. دانا چو طبله عطار است خاموش و هنرنامی، و نادان چو طبل
غازی بلند آواز و میان تهی»^(٢) ومعناه: «المسك هو ما يفوح وليس ما يبنىء عنه
العطار، والعالم كدكة العطار صامت وذائع فضله والجاهل كطبل الراقص على
الحبل عالي الصوت وخاوي البطن».

ويقول كذلك: «تلميذ بی ارادت عاشق بی زر، ورونده بی معرفت مرغ
بی بال و پر و عالم بی عمل درخت بی بر، وزاهد بی علم خانه بی در»^(٣) ومعناه:
«التلميذ بدون إرادة عاشق بلا مال، والسائر بلا معرفة طائر بلا جناح، والعالم
بدون عمل شجر بلا ثمر، والزاهد بلا علم دار بلا باب».

(١) کلیات شیخ سعدي: ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٧. والجدير بالملاحظة أن كلمة «غازي» بالنص الفارسي تعني الراقص على الحبل الذي
تقرع له الطبول في لعبة، وقد رحلت الكلمة في العامة المصرية في صورتها المؤنثة أي «غازية» بمعنى
الراقصة، وبهذا لا تنتسب الكلمة كما شاع خطأ إلى «الغزو» والجهاد في سبيل الله.

(٣) المصدر نفسه.

وقوله: «مراد از نزول قرآن تحصيل سيرت خوب نه ترتيل سورت مكتوب» أي: «المراد من نزول القرآن تحصيل السيرة الطيبة، لا ترتيل السورة المكتوبة».

الحج في گلستان السعدي

قليلة هي الإشارات الخاصة بالحج في المنشآت الأدبية عامة شأن كتابنا گلستان السعدي، وهذا أمر منطقي؛ لأن هذه الكتب لم تحرر لقص رحلات ووصف أسفار بل هي مؤلفات أدبية تنصب أساساً على تعليم النشء البلاغة والتعبير والإنشاء الأدبي والحكمة، وتتشد أيضاً الإمتاع والمؤانسة، ومع هذا فإشارات الحج في كتاب السعدي تعطي صورة مجملة ووصفاً عاماً للحج لا يختلفان كثيراً عما ورد في كتب الرحلات التي ذكرت الحج بالتفصيل والديار المقدسة كرحلة ابن جبیر الأندلسي، وابن بطوطة المغربي، وناصر خسرو العلوي الإيراني وغيرها من كتب الأسفار والرحلات التي ألفت في العصور الوسطى، لكن يبقى للسعدي الفضل والريادة عن أولئك الرحالة حتى عن ابن جبیر الأديب المنشيء، وهو أنه وظف مفاهيم خاصة بالحج توظيفاً أدبياً وفنياً، ليكسب صورته البلاغية وتعبيراته الإنشائية جزالة وجمالاً.

ويمكن بوجه عام أن نضع الإشارات الواردة في كتاب السعدي إلى الحج تحت هذه العناوين:

١ - الطريق إلى مكة المكرمة والكعبة المشرفة:

كان السعدي - على الرغم من فضله وعلمه - زاهداً يمثل السواد الأعظم من المسلمين ويعيش حياتهم ويحس أنهم مهم، فكان يسعى سائراً على قدميه من موطنه إلى مكة والمدينة لعدم الراحة ويتمدد بالتقوى. فكانت قدماه تتورمان ولا يقوى على السير، ويسقمه السهر وعدم النوم،

ولا يكاد يبلغ أول بطحاء مكة حتى تخور قواه ويطلب من حادي قافلة الحجاج أن يخلي سبيله حتى يخلد للراحة من مخاطر الانفراد ومهاجمة قطاع الطريق له بقوله: «إي برادر حرم در پیش است و حرامی در پس ، اگر رفتی بردی وگر خفتی مردی».

أي «يا أخي إن الحرم أمامك والحرامي أو اللص من خلفك فإن سرت فزت وإن خرت مُت»^(١).

وكان يلحق بقوافل الحج
المساكين والمعوزين فينكر راكبوا
النوق عليهم جرأتهم ، لضعف مؤنتهم
وليس لديهم ما يحملهم ، لكن الشوق
إلى الكعبة وزيارة الرسول يأخذ
بألبابهم فلا يأبهون بالمخاطر ويوكلون
أنفسهم إلى وليهم القادر ، ومنهم - كما
يحكي السعدي - أحد المشاة خرج من

**السائر بلا معرفة، طائر بلا جناح؛
والعالم بدون عمل، شجر بلا ثمر.**

الكوفة حاسر الرأس حافي القدمين ليرافق قافلة الحجاج لكن السعادة والحبور يفيضان من روحه ، فأنكر راكب ناقة عليه جرأته وقال له : «إي درویش كجا می روی؟ برگرد كه به سختی بمیری»؛ أي : «إلى أين تمضي أيها الفقير ارجع حتى لا تموت بائساً» ، فلم يسمع له ، ومضى المشاة والركب في الصحراء حتى بلغت القافلة إلى مكان يدعى «نخلة محمود» فحلّ بالراكب الغني المنون ، فأتاه الفقير ، وهو مسجّي على فراشه وقال له : «ما به سختی بنمردیم و تو بر بختی بمردی»؛ أي : «لم تمت من البؤس والفاقة ، وأنت مت مع مالك من الحظ والإفاقة»^(٢).

(١) كليات شيخ سعدي : ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٧ .

وكان السعدي يرى أن الإيمان الحقيقي ما وقر بالقلب وأورث صاحبه الخوف من الله والرجاء فيه وإشعاره بالآلام البعد عنه والشوق إلى لقيائه، وليس مدار الإيمان على العبادة الشكلية الخالية من الروح والشعور العميق بعظمة الخالق ومحبه، وشتان عنده بين العارفين بالله أو الزهاد - وهم الضرب الأول - والعباد من الضرب الثاني.

وفي أحد أسفاره إلى الحجاز رافقته طائفة من هؤلاء العارفين، أخذوا في سيرهم مع قافلة الحج ينشدون الشعر ويترنمون بترجيعاتهم، فأنكر عابد حالهم حتى وصلت القافلة إلى «خيل بني هلال»، فجزع طفل أسود من حي هؤلاء العربان، وأخذ في الشدو والإنشاد بصوت عذب رخيخ حتى سقطت من جمال صدحه الطيور من فضائها، على حد قول السعدي الذي رأى ناقة العابد نفسه قد استخفها الطرب بدورها، فأخذت تتراقص وألقت بالعابد من عليها، فقال السعدي له: «أيها الشيخ أتر الشدو في الحيوان ولم يؤثر فيك» ثم تمثل له بشعر من نظمه، وسائر الأشعار الواردة للتمثيل بالكلستان من إنشاد السعدي، قائلاً:

دانی چه گفتم مرا آن بلبل سحری

تو خود چه آدمی کز عشق بی خبری

اشتر به شعر عرب در حالتست و طرب

گر ذوق نیست تو را کثر طبع جانوری^(۱)

ومعناه: أتدري ماذا قال لي بلبل السحر؟ كيف تكون انساناً إذا جهلت

العشق؟

إن الإبل حين تسمع الشعر العربي تنشي وتطرب، فإذا عدت التذوق فأنت

حيوان معوج الطبع.

(۱) کلیات الشیخ سعدي: ۵۱-۵۲.

وكما كانت الحال في العصور الوسطى، كان وفد الرحمن الماضي إلى بيته يلقي كرم الكرام ولؤم اللئام، وقد جرى للسعدي في أحد أسفاره قاصداً مكة الحج ما يجري من قطع الطريق عليه ونهب ما معه من مال قليل أو كثير من بين ما نهب من أموال الحجاج، أو عطاء كرام الناس لفقراء الحجاج صدقة وتقرباً.

يذكر السعدي أن فقيراً زاهداً رافقهم في قافلة الحجاز، فوهبه أحد أمراء العرب مائة دينار صدقة له أو لمن يراه مستحقاً للصدقة، فقطع لصوص «بني خفاجة» عليهم الطريق، ونهبوا كل ما معهم من مال ومواش، وكان أكثر المنهوبين فجيعة التجار، لكثرة ما لهم وفساد ما لهم، وهاج الجميع وماج خلا ذلك الدرويش الصالح الذي لم يحرك ساكناً ولم يبد أكثرثاً، فقال له السعدي: «ألم يسرق اللصوص متاعك ومالك؟ فأجاب: بلى سرقوهما لكني لم آلفهما حتى أتألم لفراقهما^(١)».

كل هذا ليؤكد السعدي أن الحاج هو من هاجر إلى الله ورسوله لا إلى تجارة يخشى كسادها أو زيادة مال اقتطفه، وأن ما يجعل الحج مبروراً أن يكون الحاج تائقاً له بقلبه، متأهباً بجنانه، لا بماله وراحلته وبضاعته.

٢ - في الحج

وفي الحج وأداء المناسك تلتهب المشاعر وتنهمر العبرات، وترتفع الأكف طلباً لرحمة الرحمن وعفوه، وتحاط الكعبة بالطائفين والعاكفين والركع السجود، وتنطلق الألسنة وتنطق بما تضره القلوب.

وقد صور السعدي مشهدين من مشاهد هؤلاء الضارعين المبتهلين فقال في أولهما: «درويش را ديدم سر بر آستان كعبه همى ماليد و مى گفتم: يا غفور يا رحيم تو داني كه از ظلوم و جهول چه آيد:

(١) المصدر نفسه: ٩٧-٩٨.

بر در كعبه سائلى ديدم كه همى گفتم و مى گزستى خوش
مى نگويم كه طاعتى بپذير قلم عفو بر گناهم كش^(۱)

أى: «رأيت فقيراً كان يحك هامته بعتبة الكعبة ويناجي ربه: يا غفور يا رحيم أنت أدرى بما يحدث من الظلوم والجهول:

رأيت سائلاً على باب الكعبة يناجي ويبكي بحرقة قائلاً
لا أطلب منك أن تقبل طاعتي بل أن تعفو عن ذنوبي

وكان خاصة الحجيج يجدون في الحج فرصة لتجديد عهدهم مع الرحمن، معترفين بتقصيرهم، وأنهم ما عبدوا الله حق عبادته وما قدروه حق قدره، ويطلبون توبته ومغفرته، رحمةً منه لا بسبب طاعة منهم، فيروي أن عبدالقادر الجيلاني العارف المشهور رؤي في حرم الكعبة وقد سجد على الحصاء وهو يناجي ربه قائلاً: «أى خداوند ببخشای وگر نه هر آینه مستوجب عقوبتم، در روز قيامتم نايينا برانگيز تا در روى نيكان شرمسار نشوم»^(۲).

ومعنى دعائه: «رب اغفر لي وإلا فأنا مستوجب - ولا ريب - العقوبة، احشرنى يوم القيامة أعمى حتى لا أشعر بالحزى حين أنظر في وجوه الأبرار». ولا يفوت السعدي أن يذكر ما يحدث بين العامة من بعض الحجاج، من الخروج عن فرائض المناسك ومن أعمال الفسوق والمجدال بسبب نزاع على عرض زائل، إحقاقاً منه للحق وإظهاراً للباطل في نقله كل ما كان وفي الحج من الملتزمين والمتنازعين، فيحكى أن نزاعاً جرى بين المشاة - أو غير الراكبين - وظهر به فسقهم وجداهم في الحج، وكان هو نفسه واحداً منهم وشاهداً على ما حدث، فالأولى أن ندعه يحكى بلسانه بقية الواقعة، قال: «كجاوه نشينى را شنيدم كه با عديل خود

(۱) المصدر نفسه: ۴۰.

(۲) كليات شيخ سعدى: ۴۱.

می گفت: یا للعجب پیاده عاج جو عرصه شطرنج به سر می برد فرزنی می شود ،
یعنی به از آن می گردد که بود و پیادگان حاج بادیه به سر بردند و بتر شدند :

از من بگوی حاجی مردم گزای را

که پوستین خلق بازار می درد

حاجی تو نیستی شترست از برای آنکه

بیچاره خاره می خورد و بار می برد^(۱)

يقول: «فسمعت راكباً لهودج يقول لرفيقه: يا للعجب أن بيدق العاج^(۲)، أو
الماشي وجمعه المشاة - المصنوع من العاج إذا طوى رقعة الشطرنج يرتقي إلى الوزير،
أي يصير أفضل مما كان، أما المشاة أو غير الراكبين من الحجاج فقد طواوا البوادي
وصاروا أسوأ مما كانوا عليه:

أبلغ عني الحاج الذي يؤذي الناس ويمزق جلدهم بأذاه مقالة هي:
أنت لست حاجاً، بل أقل من الناقة، لأن هذه العاجزة تأكل الشوك وتتحمل
الأثقال».

۳ - العودة من الحج:

كان الناس على عهد السعدي يحتفون برجوع الحجيج احتفاءً عظيماً ويجلّلون
مناسبتهم، فكانوا يخرجون لاستقبالهم مهللين ومكبرين مستبشرين محبورين حتى
منزلين من منازل الطريق الذي يسلكه الحجاج العائدون، وهذا الأمر بين في
حكاية للسعدي مع أحد معارفه الذي استعمله والي بلاده بتوصية من السعدي،

(۱) المصدر نفسه: ۱۱۵.

(۲) بيدق الشطرنج تعريب (بياده) الفارسية، أي الماشي أو غير الفارس في لعبة الشطرنج التي نقلها العرب عن
الفرس، ويعقد السعدي مقارنة لطيفة بين مشاة هذه اللعبة المصنوعين من العاج، والذين يرتقي حالهم إلى
وزراء، بعد طي رقعة الشطرنج، ومشاة الحاج العقلاء الذين تتنكس حالهم بعد أن طواوا الأسفار البعيدة وعانوا
الأميرين لكي يبلغوا الحرم وعفو الكريم.

فقد خرج هذا الصديق لاستقبال السعدي في أوبته من الحج وزيارة مكة المكرمة ، شعوراً بالامتنان إليه وقابله على بعد منزلين خارج بلده .

ورأى السعدي تبدل حال صديقه بعض الشيء عما كان عليه قبل أن يسافر إلى الحج ، فسأله عن سبب ذلك التغير فأجابه بسبب سعي بعض الوشاة به إلى الحاكم ، لكنه عند قرب بلوغ العائدين من الحج إلى بلادهم وذويهم بشرى مقدمهم سالمين غانمين العفو والرحمة ابتهج الحاكم وسعد ، فعفا عن غضب عليهم وأخرج من سجنه المسجونين ، وقد أصاب هذا الصديق بركة من بركات بشاراة عودة الحجاج ، فأطلقه الحاكم ورفع عنه عقوباته ، وأطلق سراحه من حبسه ، وخلع عليه ، وأعادته إلى سابق منزلته ومكانته ، وسيره على رأس فرسان المستقبلين للحجيج .

هكذا كان الحكام والناس يستقبلون القادمين من الديار المقدسة بابتهاج وسعادة ، وهم يتمنون أن يكتب لهم الله الحج في أعوامهم القادمة^(١) .

وقد استغل بعض المحتالين سانحة حسن استقبال الناس للعائدين من الحج ، فكانوا يزعمون أنهم أقبلوا في العير الآتية من الديار المقدسة ، بعد أن أدوا مناسك الحج فيقبل الخاصة والعامة عليهم ، ويحسون الظن بهم ويحتفلون بهم .

ومنهم ذلك الذي قصّ السعدي حكايته وقد خدع الناس والحاكم بقوله : إنه علوي شريف قدم حاجاً ، فلقى الحظوة عند الحاكم ، وأجزل له العطاء وأدناه منه ، ثم تبين خداعه وشهد الثقة على أنهم رأوه في عيد الأضحى في ذلك العام في البصرة لا في مكة أو المدينة ، فلما حز به الأمر واندست عليه السبل ، اعترف بالحقيقة فعفا عنه الحاكم وأخلى سبيله^(٢) .

(١) كليات شيخ سعدي : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤ - ٣٥ .

٤- التوظيف البلاغي لمفاهيم الحج

أفاد السعدي من مفاهيم الحج ومدلولات ألفاظه، فوظفها توظيفاً بلاغياً، لإضفاء التأثير والقوة على صورته التشبيهية والكنائية، حداه في ذلك صناعته الأدبية، والصنعة تغلب على الصانع، ومن باب الأمثلة لا الحصر، نسوق بعض تشبيهاته هاتيك للاستدلال يقول:

... در عهد جوانی با جوانی اتفاق مخالطت بود و صدق مودت، تا به جایی که قبله چشمم جمال او بودی^(١)؛
أي: اتفق لي في عهد الشباب مخالطة شاب، وبلغ في صدقي في مودته مبلغ أن كان جماله قبله عيني.

- المجاورة:

يقول متابعاً قصة مودته لذاك الشاب الذي اختطفه الموت:
روزها بر سر خاکش مجاورت کردم وز جمله بر فراق او گفتم^(٢).
أي: جاورت تربته أياماً، وودعت الجميع بسبب فراقه.

- الحرم والحمي:

يقص السعدي طرفاً من حكاية مجنون ليلى، ويذكر أن حاكم العصر لما سمع بأوصاف ليلى ومبلغ حسنهما من شعر المجنون، أرسل يطلبها ليشهد جمالها، فهاله أنها لم تكن بهذه المحاسن التي كان يراها المجنون فيها - كما يذكر السعدي -:

«آن که کمترین خدام حرم او به جمال ازو در پیش بودند و به زینت بیش»
أي: بحکم أنه أدنی خدام حرمه كانت تتفوق عليها في الجمال وتزيد عنها

(١) المصدر نفسه: ٩٨

(٢) المصدر نفسه: ٩٩.

زينه، فأدرك المجنون ما كان يجول بخاطر الحاكم بفراسته فقال: «از دريچه چشم
مجنون بايد در جمال ليلي نظر كردن تا سر مشاهده او بر تو تجلی كند:

ما مرّ من ذكر الحمى بمسمعي لو سمعت ورق الحمى صاحت معي
يا معشر الخلان قولوا للمعا في لست تدري ما بقلب الموجه
ومعنى عبارته الفارسية «لابد من النظر في جمال ليلي من نافذة عين المجنون
حتى يتجلى عليك سر المشاهدة...».

- الكعبة:

وقد كثرت الإشارة إليها، ووظف السعدي مدلولاتها بلاغياً، ومن ذلك هذا
التشبيه البياني الوارد في قصة فحواها أن حاكم عصره أساء الظن برفقة له كانوا
يعملون عنده، فدخل عليه السعدي وأظهر الحقيقة، فاعتذر الحاكم عن سوء ظنه
راضياً، وهو ينشد:

چو كعبه قبله حاجت شد از ديار بعيد
روند خلق به دیدارش از بسی فرسنگ
تورا تحمل امثال ما ببايد كرد
كه هيچ كس نزنند بر درخت بی بر سنگ

أي: «بما أن الكعبة قد صارت قبلة الحاجة، فإن الناس يطوفون كثيراً من
الفراسخ لزيارتها من ديارهم البعيدة، فعليك أن تتحمل أمثالنا؛ لأنه ليس من
أحد يقذف بالحجر الشجر الخلو من الثمر».

ويشبه السعدي السلوك الصوفي وما هو إلا سلوك إسلامي مؤلف من محطات
أو بتعبير الصوفية مقامات وأحوال تبدأ بالتوبة فالشكر، فالصبر، فالمرقبة،
فالخوف، والرجاء، والرضا، وينتهي بالتوحيد، ويتخلّى فيه السالك عن صفاته
المذمومة، ويتحلّى بشيم فاضلة، مع كل منزل من منازل الطريق.

ويشبه السعدي هذا الطريق بطريق الكعبة والحج حين يفرض، فينوي الحج ويخرج من بيته، يبدأ بالتوبة، ويتابع العبادة والشكر والصبر على مخاطر السفر، ويراقب الله ويخافه ويرجو رحمته، ويرضى بما يقدره له، لينتهي إلى توحيد ربه وهو يؤدي مناسك الحج.

ويوصي السعدي نفسه بسلوك هذا الطريق الراقى الخلقى لبلوغ كعبة الرضا حين يقول، يدعو ربه ويناجي نفسه:

ای بارخدای عالم آرای بر بنده پیر خود ببخشای
سعدی ره کعبه رضا گیر ای مرد خدا در خدا گیر

أي: اعف عن عبدك الهرم يا ربي، أنت الذي فطرت العالم وزينته؛
وأسلك السعدي طريق كعبة الرضا، وتمسك بالله يا عبدالله.

- كسوة الكعبة

ومن التشبيهات التمثيلية هذا التشبيه اللطيف الذي يعقده للدلالة على أثر الصحبة وتأثير المجاورة، فكسوة الكعبة اكتسبت قدسيتها من اقترانها بالكعبة، لا بسبب صنعها من القز والحريز، كذلك لكي يكتسب المرء عزة وقيمة لا بد أن يقترن بصحبة عزيز مبدل، يقول السعدي في ذلك:

«اعرابی را ديدم كه پسر را همی گفتم: يا بني إنك مسؤول يوم القيامة ماذا اكتسبت ولا يقال: بمن انتسبت؛ يعنى تو را خواهند پرسيد كه عملت چیست، نگویند پدرت کیست»:

جامه كعبه را كه می بوسند او نه از كرم پيله نامی شد
با عزیزى نشست روزی چند لاجرم همچون او گرامی شد

ومعنى الحكاية: رأيت أعرابياً يقول لابنه - وهو يعظه -: يا بني! إنك مسؤول

يوم القيامة، ماذا اكتسبت، ولا يقال: لمن انتسبت، أي سوف تسأل عن عملك،
ولن تسأل عن نسبك:

كسوة الكعبة التي لم تلثم لم يذع ذكرها لأنها من حرير القز
ومخالطة العزيز أياماً عدة لاجرم أنها تكسب المخالط عزة

ومن الكنايات التي استنبطها السعدي من مفاهيم الحج:

- ستار الكعبة:

يقول يكني عن الخداع والختال:

پارسا بين كه خرقه در بر كرد جامه كعبه را جُلِ خِر كرد
أي: انظر هذا الزاهد الذي ارتدى أسماه البالية وقد جعل ستار الكعبة بردعةً
لحماره.

- طريق الكعبة:

ويقول مُكنياً للمراءاة أو للجهل والهوى بالاتجاه إلى غير الكعبة:
ترسم نرسي به كعبه ای اعرابی: كين ره كه تو می روى به تركستانست؛
أي: أخشى ألا تبلغ الكعبة أيها الأعرابي؛ لأن الطريق التي تسلك تتجه إلى
بلاد الترك.

- استدبار القبلة أو استقبالها:

ويحكي السعدي وهو يكني للخداع والمراءاة والنفاق باستدبار القبلة
واستقبال الناس: «عابدی را پادشاهی طلب كرد اندیشید كه دارویی بخورم تا
ضعیف شوم مگر اعتقادی كه دارد در حق من زیادت كند آورده اند كه داروی
قاتل بخورد و بمرد»:

آن که چون پسته دیدمش همه مغز پوست بر پوست بود همچو پیاز
پارسایان روی در خلق پشت بر قبله می کنند نماز

والمعنى: «طلب ملك عابداً ففكر: أتناول دواء حتى يهزل جسمي فر بما يزيد
اعتقاد الملك فيّ، رُوي أنه تناول دواءً أقاتلاً فمات:
من كنت أظنه أنه لبّ كله كالفستق ظهر أنه كالبصلة قشرة تعلوها قشرة،
والزهاد الذين يستقبلون الناس يستدبرون القبلة في صلاتهم.

هـ - مقام الحجاز

مما نقله العرب عن الفرس، خاصة بعد الإسلام، من الفنون فن الموسيقى،
وتقوم الموسيقى الفارسية على اثني عشر مقاماً لا يزال بعض أسماؤها فضلاً عن
نغماتها رائجاً حتى اليوم مثل «دوگاه»، أو المقام الثاني، «سه گاه»، أو المقام الثالث،
و«چهارگاه»، أو المقام الرابع، ومقام الـ «راست» أي المستقيم، والـ «نهضت» أي
المحتفي و«نهاوند».

وسميت مقامات ثلاثة بأسماء مناطق ثلاث لأهميتها وهي: خراسان والعراق
والحجاز، وبديهي أن قيمة بلاد الحجاز مستمدة من علو مقام الكعبة ومنزلتها في
القلوب، لأنها مهوى أفئدة الناس و محط أنظارهم ومقصدهم الأسمى.

هذه المقامات الثلاثة إذا شدى بها المطرب استمع له الناس، لاسيما إذا كان
عندهم مقبول الصورة جميل الخلقة؛ لأنه يجمع بين حلاوة شدوه لها وجمال طلعتة،
أو كما ينشد السعدي:

آواز خوش از كام و دهان و لب شیرین

گر نغمه کندور نکند دل بفرید

ور برده عراق و خراسان و حجازست

از حنجره مطرب مكروه نزيد^(١)

أي: الصوت الرخيم من الحلق والثغر والشفاه الجميلة إذا انطلق أو لم ينطلق
بنغم سبي الفؤاد، ولو كان من مقام العراق وخراسان والحجاز، وتنغمت به حنجره
مطرب دميم ما كان جميلاً.

بيد أن سعدي يخص مقام الحجاز من بين المقامات بالرقه والرخامة واللين
حتى أنه من فرط رفته وسبق جماله لا يستطيع أن يغالب قرع طبول الراقصين من
ضحيجها، ولا يعلو فوق جلبتها كأنه العالم الرفيع العلم الوقور الرابط الجأش الذي
يغلبه الجاهل الصاحب ذو الجبله، فيقول السعدي في ذلك:

خردمندی را که در زمرة اجلاف سخن ببندد شکفت مدار که آواز بریط با
غلبه دهل بر نیاید، بوی عییر از گند سیر فرو ماند:

بلند آواز نادان گردن افراخت که دانا را به بی شرمی بینداخت
نمی داند که آهنگ حجازی فروماند زبانک طبل غازی^(٢)

ومعنى قوله: لا تعجب للعاقل إذا التزم الصمت في زمرة الأجلاف، لأن
عزف العود لا يقوى على قرع الطبل، وفوح العییر يعجز أمام رائحة الثوم
الكرهية:

رفع الجاهل عقيرته بصياحه حتى أوهى العالم بسبب عدم حيائه
وهو لا يدري أن المقام الحجازي لا يغالب قرع طبل الراقصين

(١) المصدر نفسه: ٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٣.